

التعايش مع الآخر في ضوء القرآن



يتحدّث القرآن الكريم عن علاقة الإنسان بالإنسان، ويُثَقِّفُه، ويُعَلِّمُه أسس التَّقْيِيم، وأساليب التَّعامل والتَّعايش والعلاقة مع الآخر..

القرآن علّم الإنسان أنّه إنسان.. تتجلّى فيه معان وقِيَم إنسانية، هي قيمة حياته ووجوده، والنّاس سواسية في الإنسانية، فأصل المنشأ الإنساني واحد..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّعَفُوا رَّبَّكُمُْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً) (النساء / 1).

وكرّم الله هذا الإنسان وعظّمه ونبّهت أرقى المبادئ الأخلاقية والقانونية لبيان حقّ هذا الإنسان وحماية إنسانيّته من اعتداء الآخرين عليها، ومن اعتداء نفسه على إنسانيّته.. وبعبارة أخرى توفير الحماية للإنسان من ظلم أخيه الإنسان، ومن ظلم نفسه لنفسه.

يتجلّى أسمى بيان لتكريم الإنسان، واحترام شخصيّته في قوله تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَيْرِ وَالْبَيْحَرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (الإسراء / 70)

وفي تزاخم الذّوات، وصراع الأنا والمصالح، تبرز ظاهرة استعلاء البعض من بني الإنسان على أخيه الإنسان، فيشعر بالعلوّ والغرور والكبرياء الأجوف.

فتتكوّن في نفسه رؤية وتصوّرات ونوازع خاطئة يرى نفسه فيها أعظم من غيره، بل قد يرى البعض من هؤلاء أنّ الوجود ملخّصاً بذاته.. وتتعاظم تلك الظّاهرة المرضيّة والحالة الانحرافية عند هذا الصّنف من المرضى، عندما يرى نفسه متفوّقاً على غيره بالسلطة أو المال أو الجمال أو الصّحّة

أو المكانة العلمية أو الاجتماعية، بل لا يرى أن غيره يستحق أن يُحترم أو يُكرَّم، أو يُعامل كإنسان له من الحقوق والكرامة ما يُعادلُه ويُساوِيه هو.. واضعاً نفسه ضمن مصاديق وصف القرآن للذات الطاغية المتكبِّر بغير حق:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَافٍ * أَنْزَلْنَاهُ رِجَالًا فَاسْتَوَىٰ) (العلق / 6-7).

إنَّ هذا الطَّغيان يتجسَّد سلوكاً عدوانياً ضدَّ الآخرين، يتمثَّل في احتقار الآخر والاستخفاف به، والتَّهوين من شأنه، وأهمَّيَّة ما يصدر عنه.. لذا يُعيَّر عن ذلك بالسَّخريَّة والغمز واللامز والهمز والغيبة.

والقرآن الحريص على حفظ كرامة الإنسان وقيمه الإنسانية، واجه تلك الطَّواهر السلوكية والأخلاقية العدوانية.. واجهها بالرَّفص والتَّحريم.. واعتبرها من كبائر الآثام، ومساوئ الأخلاق التي جاء الوحي ليُطهِّر المجتمع منها، ويُخصِّص الإنسان المسلم من الإصابة بها.. لذا نجده يعن أن ينهى عن تلك الأخلاقية المنحطَّة.. يذكِّر الإنسان بوحدة النُّوع وأصل المنشأ، وأنَّ الاستخفاف بالآخرين والإستهزاء بهم عمل خاطئ، وتجاوز على إنسانية الإنسان..

لنقرأ النِّصَّ القرآنيَّ، ولننصت لما يُتلى، ولنفهم ولنعي تلك الثَّقافة الأخلاقية التي سعى القرآن الكريم لتربية المجتمع عليها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُوا مِنِّي خِرَ قَوْمٍ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٍ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّغَابِ بِذُنُوبٍ أَلَيْسَ الْأَفْسُوقُ بِعَدُوِّ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات / 11-13).

تحدَّث المُفسِّرون عن سبب نزول هذه الآيات، وذكروا الحوادث والطَّواهر الاجتماعية التي نزلت لتُعالجها، وتُطهِّر المجتمع من آثارها.. فإنَّ آيات القرآن كان بعضه ينزل بسبب وجوده بعض الحالات السيِّئة في المجتمع ليُعالجها، ويوضِّح موقف الشريعة منها، ويضع الحلول النَّاجعة لها..

ذكر الواحدي في أسباب النُّزول إنَّ قوله تعالى: (لَا يَسْخَرُوا مِنِّي قَوْمٍ مِّنْ قَوْمٍ)، نزلت في ثابت بن قيس؛ لأنَّه عيَّر أحد الجالسين في مجلس الرُّسول (ص) بأُمِّه.. وذكر أنَّ قوله تعالى: (وَلَا نِسَاءٍ مِّنْ نِّسَاءٍ)، نزلت في بعض الصَّحابة ممَّن سخرن من ملابس أُمِّ سلمة.. زوج الرُّسول (ص).

وفي موضع آخر يستنكر القرآن أخلاقية أولئك الذين يهزمون الناس ويلمزونهم، لغرض الخط من شخصيَّاتهم، والنَّيل منهم.. ويجعل لهم الويل والعذاب..

(وَيَلُوكُ لِكُلِّ هُمْزَةٍ [1] لُّمَزَةٍ [2] * الَّذِينَ جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدُوهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) (الهمزة / 1-3).

وفي مواضع أخرى يستعرض نماذج من سلوكيَّة السَّاخرين والمستهزئين بالناس بدافع التعالي والغرور والعُجب وعبادة الذات..

(زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهِ يُرْزِقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (البقرة / 212).

وعرض لنا القرآن الكريم صوراً من سلوكيَّة السَّاخرين والمستهزئين بالناس بدافع الغرور

والإستعلاء من مساحات تاريخية شتى.. نقرأ ذلك من خطابه للنبي محمد (ص):

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (التوبة / 79).

(وَإِذَا رَأَى السَّيِّئِينَ كَفَرُوا ۖ إِنَّا بِتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا ۖ أَهَذَا السَّيِّئُ يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ۖ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ) (الأنبياء / 36).

(فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (غافر/ 83).

ومنها ما ينقله لنا القرآن من أعماق التاريخ ومساحات القرون العميقة، فيُحدِّثنا عن هذه الظاهرة في مجتمع النبيِّ نوح (ع) فيُجسِّد الصورة بقوله:

(فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا بِرَأْيِ الرَّأْيِيِّ وَمَا نَرَى لَكُمْ عِلَالِيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَطْمِئُكُمْ كَذَابِيْنِ) (هود/ 27).

ويأتي جواب النبيّ نوح (ع)، وردّه الحاسم على تلك الأخلاقية المتعالية المغرورة، ورفضه لما طلبوه منه أن يطرد الفقراء والمستضعفين والطبقة المسحوقة في المجتمع.. فهؤلاء حسب رؤاهم السيئة لا يستحقّون أن يجتمعوا معهم في مجلسٍ أو يجلسون معهم في صفٍّ عقيديٍّ واحد، أو يُساوى بينهم وبين أولئك في التّعامل والوجود الاجتماعي، ويردّ النبيّ نوح (ع) على هذا الفهم والموقف الخاطئ بقوله:

(وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ مُغْنِيكُمْ عَنْهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِحُكْمِ رَبِّهِمْ يُغْنِيهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا قَبْلَ ذَلِكَ لَأَسْأَلَنَّكُمْ إِيَّاهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ أَتَذْكُرُونَ) * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ حِينَ أُقَاتُ فَيُفْلِتْ مِنِّي فَلَا تَذْكُرُونِ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُفْعَلَ لَهُمْ خَيْرٌ إِلَّا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (هود/ 29-31).

وينتهي الجدل والحوار بين السَّامية بأنَّه لن يطرد الذين تزدري أعينهم.. فإنَّ مَنْ يفعل ذلك هو ظالم لا يستطيع أحد أن يحمله من عذاب الله.. إنَّ الله ينظر لما في أنفسهم من خير فيتعامل معهم من خلال ذلك.. جاء هذا البيان في النصِّ القرآني:

(وَوَيْلًا لِّقَوْمٍ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ رَبِّهِمْ لِيُخْرِجَهُمْ مِّنْ دَارِهِمْ وَيَقُولَ هَؤُلَاءِ نَارِ اللَّهِ كَذِبٌ أُولَٰئِكَ يُجْرَىٰ أَعْيُنُهُمْ فِي غَیْظِنَا نَارَ الْجَحِيمِ (هود/ 30).

(وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا مِنَ اللَّهِ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) (هود/ 31).

وهكذا يتحدث القرآن عن طاهرة التعالي على الآخرين، وطاهرة السخريه منهم والإستهزاء بهم... وهمزهم ولمزهم.. ويعتبرها من أسوأ الطواهر الأخلاقيه التي يجب استئصالها من المجتمع، حمايه لكرامه الإنسان وشخصيته الإنسانية.

وللغرض ذاته، حرّم القرآن الغيبة والتجسس على الآخر؛ لكشف عيوبهم ونشرها في المجتمع؛ لإسقاط شخصياتهم، والنيل منهم..

(وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ أَلَيْسَ بِالْحَسْبِ لِحُكْمِ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ)

وبعد أن نهى القرآن الكريم في سورة الحجرات عن السّخرية أن يسخر رجل من رجل أو امرأة من امرأة، وخاطب الآخرين بأنّ مَن تسخرون منهم عسى أن يكونوا خيراً منكم.

نهى عن التنايز بالألقاب، وهو أن يذكر شخص شخصاً آخر بلقبٍ يكرهه فيسيئ لشخصيته ومكانته وينتقص منه.. وفي هذه الآية ينهى القرآن عن اللّـمـز.. عن ذكر عيوب النّاس وتعييرهم للخطـ من مكانتهم.. واعتبر هذا اللّـمـز.. هو لمز للنفس أيضاً.. لأنّه سيُقابل بالمثل وستشيع في المجتمع هذه السلوكية السيئة..

ويستمرّ في النهي عن التجسّس.. وهو تتبّع هفوات النّاس ونشرها والتّشهير بها، كما نهى عن الظنّ السيئ بالآخرين، والتعامل معهم على أساس هذا الظنّ، فإنّه إثم وسلوك مرفوض..

ولحفظ كرامة الإنسان، وحماية شخصيته، ينهى القرآن عن الغيبة، وهي ذكر الإنسان في غيبته بشيء يكرهه، وشبّهها بأكل لحم الإنسان الميّت لكرهاتها، وقذارة تناولها..

والآية تُثبّت أنّ النّاس خُلِقوا من ذكرٍ وأنثى، فهم سواء في الإنسانية، وأكرمهم عند اتّقاها.. إنّ ما اشتملت عليه هذه الآية من قيّم أخلاقية وسلوكية لحفظ كرامة الإنسان، لهي من أرفع القيّم والتّعليمات التربوية لبناء مجتمع يُحترم فيه الإنسان وتُصان فيه كرامته وحقوقه..

[1] - الهُـمَـرَة: الذي يغتاب النّاس.

[2] - اللّـمـز: الذي يعيب النّاس.. ويذكر عيوبهم.